مصادر الاستراتجية الاستعمارية تجاه توارق آزجـــر وأهقار: الأب فوكو منظرا

اعداد الأستاذ: مرموري حسن

جانت ولاية ايليزي

hmarmouri@yahoo.fr

إن فهم قرارات وتصرفات الفاعلين الاستعماريين لا يمكن ان يكون الا بالرجوع الى نظرتهم للتنظيم السياسي "للعصبية" ومصادر استراتيجيتهم. من خلال الرجوع الى ما نفذته السلطات الاستعمارية تجاه التوارق من قرارات ومواقف ميدانيا والبحث في ارشيف ودراسات الفاعلين في السياسة الاستعمارية تجاه التوارق ك الاب فوكو وبعض الدارسين الذين يعتقدون أنهم مختصين في دراسات المجتمع التارقي، ماذا يميز تلك النظرة الاستعمارية؟ وكيف اهتدت الى فكرة التقطيع والتجزئة واختراع النماذج السلطوية والغاء الموجودة ؟ وماذا يمكن استنتاجه كانعكاسات على تطور العصبية ومؤسساتها ضمن الوضع الاستعماري "الجديد"؟

على ضوء ما سبق، نحاول في هذا المقال اختبار المبادئ النظرية حسب المفهوم الأوروبي للسياسة وتحليل منحى الأفكار التي تخصها وكيف تعاملت وصاغت في كل مرحلة سياسة خاصة تجاه العصبية، مستمدة ومستوحاة من بعض منظري السياسة الاستعمارية بالصحراء.

التنظيم السياسي للعصبية كما يراه الأوروبيون :

إن تطور الأحداث منذ الغزو الاستعماري لـ آ زجـر وأهقار إلى غاية الاستقلال وما صاحب ذلك من تغيرات على مختلف المستويات، يمكن أن يقسم

إلى أربعة مراحل: الغزو، التمرد، الخضوع، الثورة. وكانت هذه الفترات محل تقييم بعض الباحثين خاصة في المرحلتين الأوليتين، لكن دائما بأفكار مسبقة و أحكام قيمية.

إن تصور العالم التارقي بصفة عامة كمجموعة قبائل متصارعة متفككة قد طغى على كتابات الفترة الاستعمارية وظهر أيضا في اغلب الدراسات الاتنوغرافية و التاريخية الحديثة بعد الاستعمار.

هكذا يقدر F.figlestad بان " **التوارق نهاب بالفطرة ومستعدون للعودة إلى عاداتهم[...] بمجرد وجود الفرصة**". بينما يبين فيما يتعلق بتمردات 1916-1917 "**الغياب الكلي للتنسيق والتوافق في ظل عدم وجود زعماء حقيقيين من بين المتمردين**"[1].

وهو الطرح الذي يردده الأفارقة[2] المتخرجين من المدارس الفرنسية دون عناء أمثال " **اندري ساليفو** André salifou " الذي يقول انه عند ظهور الأطماع الأوروبية في القرن العشرين " **لم تكن الوحدة السياسية لـ: آير موجودة، لقد هربت القبائل الاكثر قوة وارتدت كل واحدة إلى أراضيها الخاصة**"[3] بينما يرى أصحاب الأطروحات الايدولوجية أمثال" **بورجو** André bourgeot " الذي يشرح فيما يخص موضوع مقاومة فهرون وكاويسن بأنهم " **خلقوا ظروف تحريض شاملة، أكيد غير منظمة ودون تنسيق والذي – رغم ذلك- اشعل في ذلك الحين مجموع بلدان التوارق وهو حدث لا سابق له في تاريخ هذا الشعب**" [4] و أخيرا بالنسبة لـ "كيل" أو أهل آزجر يعتبر قاست Marceau Gast أنه " **ليس لمختلف المعارضين للهيمنة الفرنسية أي تفكير سياسي واضح ومنسق** "[5].

إلى هذه التحاليل التي تؤيد فكرة كانت موجودة قديما حول الفوضى البربرية تضاف الكثير من الروايات التاريخية حول التوارق خلال الأحداث المتراكمة التي وصفها العديد من الملاحظين الأجانب.

إن عدم الفهم هذا، ناتج أساسا من استعمال وسائل بحث نظرية و ميدانية غير لائقة من جهة وعدم الأخذ بعين الاعتبار بصفة جدية الرؤية المحلية للتنظيمات التقليدية (العصبية) وتطورها مع الأحداث.

إن كل السياسة الاستعمارية الخاصة بالمجتمع التارقي مبنية على أساس أفكار وآراء إما المغامرين الأوائل(بارث، ديفيرييه، فورو...) وإما الضباط والجنود الطلائع (لابرين، باسي، دينو، قارديل...) ومنها أنتجت مصطلحات وتصورات مستمرة إلى اليوم، تحددها في الغالب العلاقة مع المستعمر؛ كتوارق حقيقيون، متحضرون وأصدقاء لأنهم خاضعون، مقابل توارق متعصبين ومتخلفين أعداء القضية الفرنسية، لأنهم رافضون للخضوع والتعامل مع المستعمر، والتهمة الجاهزة أنهم مستعملين من أطراف خارجية مثلما صنف كل من أمود وانقدازن أو أتسي أق أملال. وكان أسوء تصنيف أنتجته الأنا الأوروبية هو العرقنة ونموذج صراع الطبقات المستورد والذي تم اسقاطه مباشرة من الوضع السوسيو-اقتصادي السائد بأروبا في عهد الاقطاع[6]

ان أهم الانعكاسات الميدانية لتلك الرؤى كانت على التنظيم السياسي المحلي وفضائه السيادي، فيما يمكن اختصاره بالعرقنة والتقطيع.

العرقنة و تقسيم السلطة

تسمح دراسة الأرشيف الاستعماري الفرنسي معرفة كيف أن التوارق وبصفة رسمية تم تصنيفهم كـ: عرق، اندجان، إقطاع، نهاب وعصابات... وتم التعامل معهم طيلة فترة الاستعمار على هذا الأساس.

إن أول مخبر لوضع نظام وسياسة استعمارية لكل الفضاء التارقي تقريبا كان كونفدرالية أهقار(بعد هزيمة تيت 1902). الخبير والمنظر كان الراهب فوكو.

إن التصور الذي طوره هذا الأخير يرتكز على تصنيفات طبقية مبنية على أساس الأحسن والاسوء، المسالم والشرير... لقد بدأ بالعصبية الحاكمة أو بمن سماهم " **نبلاء اهقار الجامدين**"، ثم بالعصبيات الموالية أو "**التوابع**" حسب مفهومه، والذين يرى أنهم جيدون يمكن تحضيرهم" civilisable" كما يمكن تربيتهم" éducable " بمعنى أن لهم القابلية للتطور على النحو المراد والاستجابة لواجب ألاستعمار و يتبين ذلك جليا في وصفة لتمردات 1916 في رسالة إلى الرائد Duclos يستعمل فيها ألفاظ " **تطويع الحيوانات**"، فيقول:" **إن هذه الأعمال**

العصيانية، آتية من الذين لم يهتم بهم اي ضابط بعد رحيل لابرين. فبعد أن قضوا مدة دون الإحساس بالموت، هاهم يعودون إلى حالتهم الوحشية الحيوانية. النبلاء هم الجزء الشرير السيئ العاصي والكسول. لا يفكرون إلا في السرقة والسيطرة على حسابنا على السكان واستغلالهم. إمفادا!الموالين! الذين لا يغادرون أبدا اهقار يحققون تقدما جيدا نتيجة تواصلهم المباشر معنا "[7]

متوحشون، استغلاليون أشرار، كسلاء..هي أهم ميزات "**النبلاء**" في هذه الرؤية التي تتسم بالغياب الكلي لكل قيمة أخلاقية أو اجتماعية. أخيرا ما يعيبه عنهم "**الراهب العسكري فوكو**" هو اختيارهم للاستقلال بدل الاستعمار!

من جهة أخرى تشكل المعزولات الاثنية، العشائرية، الثقافية الدينية والجهوية إحدى أهم موضوعات العمل الاستعماري. حيث يعتبر التوارق على أنهم قبائل معزولة دون اتصال ولا علاقة فيما بينها مع عدم القدرة على التنسيق والتسيير الجماعي مما أنتج "تحليلات" متكررة وممله للمقاربة الاتنولوجية والتاريخية للتوارق.[8]

إن القلق الذي كان ينتاب العسكريين الفرنسيين في بداية القرن العشرين كان يتمثل في "**خطر**" عدوى اهقار من طرف التوارق الآخرين في الجنوب والشمال الشرقي والذين لم يتم السيطرة عليهم بعد. لقد كانوا يخشون تقاربهم مع "**أعداء فرنسا**"، السنوسية والأتراك و الألمان.

لذلك أصبح كسر الشبكة وتعطيل الحركة وعزل كل "**كيان**" على حدى أهدافا استراتيجية ذات أولية.

لقد وضعت الإدارة الفرنسية مخططا لتقسيم الأقطاب السياسية (الكونفدراليات) بالطريقة التي منحت من طرف فوكو.

إن التوصيات التي وجهها هذا الأخير إلى الرائد ديكلو Duclos في رسائل مفصلة تتضمن تجزئة واضحة لمجموع كيل أهقار بتقسيمهم إلى قبائل مستقلة الواحدة عن الأخرى والتي تجزأ بدورها إلى عشائر منفصلة بنفس الطريقة.

وفي هذا ينصح بالنسبة لقبيلة " **تايتوق**" الذين يشكلون جزءا من كيل اهقار بما يلي: " **لابد من الاهتمام جديا بـ تايتوق و عشائرهم، كيل اهفت، تجهى- ن- افيس، ارشومن. لا يمكن تركهم أحرارا، لقد استثنى النقيب دينو** Dineaux **وبحكمة زعيمهم الوحيد مفصلا الكل ولكل قبائل تايتوق [...] حيث تتبع كل واحدة منها مباشرة الضابط، قائد مجموعة أهقار**"[9]

إن هذه الطريقة المتمثلة في وضع كل القبائل تحت التبعية المباشرة للضابط قد وسعت إلى آزجر ثم إلى الأقطاب السياسية الجنوبية المنهزمة.

إن القلبية والعشيرة أو الصنف الإجتماعي قد تم تصورها على النموذج العرقي والاثني ككيانات مغلقة أو على شكل معزولات تجريبية. وعلى اثرها تم إرساء السياسة الاستعمارية لتسيير المستعمرين بصفة عرقية مفيدة للمستِعمر ومكلفة جدا بالنسبة للمستعمَر.

في إعادة تفسيره للقواعد الخاصة بالانتماء القبلي يرى **فوكو** أن الإجراءات المتخذة " **تتناسب مع التقليد**"[10] إلا أن اعتقاده هذا يطرح إشكالا في القراءة التي يستعملها لوصف وفهم تنظيم هذا المجتمع والمنتقاة من سلسلة الصفات الخاصة كما يميزها: الأصل، التفرع، الصنف الاجتماعي...

وفي الأخير أدى تعديله للتقليد أو العادة، من خلال تفكير اوحادي يرسم فضاء مجزئا حسب أصناف اجتماعية غير قابلة للمزج، إلى إنشاء كيانات من نوع اوحادي وحيد و معزول.

النتيجة شبيهة بإسقاط نموذج "العرقنة" الذي يكامل صورة المنطق المتناوب الذي تم وضعه في التصورات السياسية وطريقة تنظيمها وتسييرها ثم استراتيجيتها ومؤسساتها ثم إعادة تشكيلها في الأخير.

تقطيع الفضاء السيادي :

في سنة 1901 عين الرائد لابرين على رأس قيادة إقليم الواحات ملحق تديكلت الذي لا يتضمن حينها سوى منطقة عين صالح ورقان إلى غاية الفترة

الممتدة بين 1902-1906 أين يضيف لابرين اهقار إلى الملحق وفي هذا الوقت مازال آزجر لم يحتل، وكانت الحملات العسكرية والإدارية مستمرة لإخضاع سكانه و تدجينهم[11]

ورغم ذلك لم يستثني من استراتيجية الاب فوكو في تصوره للتقسيم والتقطيع الاستعماري للإقليم، إذ يعتبر أن:"**امتداد ملحق تديكلت يساوي مرتين ونصف مساحة فرنسا [...] يبدو من غير الجدوى تعليل استحالة التسيير الحسن لمثل هذا الإقليم من طرف رئيس ملحق واحد. فمن المستحسن، وبدون إطالة، تعديل إقليم تديكلت؛ فبدل ملحق واحد نخلق ثلاثة : تديكلت، اهقار، آزجر**" [12]

وقد حدد الراهب في تفاصيل دقيقة حدود كل إقليم ومقره وتشكلة إدارته، عدد الضباط والمترجمين ومهامهم ومسارهم المهني وحتى عطلهم.

المواصفات مبنية على تصور عسكري لتنظيم الصحراء بصفة مماثلة لقلاع محاصرة والتي لابد من ضمان دفاعها عن طريق تقسيم تربيعي لإقليم مراقب بواسطة مجموعات متحركة.

يتعلق الأمر بمخطط مهيكل ومتين ناتج عن أفكار عسكرية مستمدة من تصور استعماري لتنظيم الإقليم ومن حدس سياسي واستراتيجي ملفت للانتباه.

بعد إمضاء الاتفاقية الفرنسية –التركية حول مرافقة القوافل بآزجر وإمضاء اتفاقية نيامي لتسطير الحدود بين الجزائر وافريقيا الغربية الفرنسية (AOF) في 20 جوان 1909، ومن جراء الوضعية الناتجة عن ميلاد مصلحة إدارة الأقاليم الجنوبية، يكتب فوكو رسالة إلى الرائد Depommier حول موضوع تنظيم الفرق الصحراوية: " **هذه التغيرات تبدو ضرورية بعد احتلال جانت [...] يمكن جمع هذه الأخيرة مع بولينياك وتماسنين كمكتب وحده، بينما يحتفظ عين صالح بتديكلت،في حين يبقى في الجنوب اهقار وتوات. أما في الحدود الايطالية فإنه من الضروري وضع رئيس مكتب بجانت مقابل غات**"[13].
وكالعادة يسهب في تفاصيل دقيقة للغاية. في الأخير تم الاعتراف الرسمي بهذا

المخطط بعد صدور المرسوم المؤرخ في 11 جوان 1924 الذي يقسم تديكلت إلى ثلاثة ملحقات : تديلكت، اهقار، آزجر تماما مثلما صوره الأب فوكو.

بالنسبة لهذا الأخير فإن مخططة لتنظيم الصحراء يندرج في استراتيجية الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، والتي هي بمثابة تقسيم للصحراء الوسطى على أساس يتناسب نوعا ما مع الأقطاب القديمة (الطبل) أي اهقار و آزجر.

وكما يبدو فإن "**مخطط فوكو**" أنجز في محتوى إقليمي ودولي خاص كان أهم ما ميزه إعلان الحرب الإيطالية التركية بطرابلس الغرب واحتلال التبستي وبركو بتشاد عن طريق الأتراك الذين يحاولون بالتحالف مع السنوسيون الحفاظ على مواضعهم بإفريقيا كآخر جهد.

وجاء المخطط أيضا في وقت يشهد إعادة تنظيم داخلي عام للفضاءات الاستعمارية (اتفاقية نيامي و ميلاد إدارة الأقاليم الجنوبية).

وأخيرا كانت الوضعية آنذاك تشهد اضطرابات حربية على مستوى حدود الامبريالية الاستعمارية الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى.

لذلك فإن العودة إلى هذه الظروف ستسمح بفهم وتوضيح الأسباب التي أدت بـ: فوكو إلى إنجاز هذا المخطط والذي يرجع إلى رؤى وأهداف جيوستراتجية مسبوقة بتحاليل ودراسات جيوسياسية للمجتمع لا تبحث سوى عن الحفاظ على مصالح الامبريالية الاستعمارية.

فضلا عن ذلك فإن الإيديولوجية "الفوكولدية" المعبر عنها عن طريق كتاباته ومراسالاته هي قومية، وطنية، مسيحية استعمارية ولا حساب فيها " للإندجان" و لا استثناء للتوارق.

المراجع :

1- مرموري حسن، **التوارق بين السلطة التقليدية والادارة الفرنسية في بداية القرن العشرين**، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010

2- Bourgeot André , « Les échanges transsahariens, la senusiya et les révoltes twareg

1916-1917 », In cahier d'études d'africaines (69-70), Paris 1979,159-185

3- _____, "Sahara espace géostratégique et enjeu politique ", Auterpart, Paris,2000

4- Goré (G), sur les traces de Charles de Foucauld, Nouvelliste, Lyon, 1936

5-Hélène Claudot HAWAD, "Eperonner Le Monde" un nomadisme, cosmos et politique chez le touaregues, edisud, Aix-en-Provence, 2001,

6- Marceau Gast, «Ajjer », in Encyclopédie berbère, Edisud, Aix-en -Provence, 1986,

7- Salifou André, kaoussan ou la révolte sénoussiste, CNRSH, Niamey, 1973,

الهوامش :

1 -Hélène Claudot HAWAD, "Eperonner Le Monde" un nomadisme, cosmos et politique chez le touarègues, edisud, Aix-en-Provence, 2001, P07

2 - يستعمل معظم الباحثين الافارقة في وصف اعمال المقاومة و الدفاع من طرف من يفترض ان يكون مواطنيهم اليوم، مصطلحات عصابة، نهاب، لصوص ومجرمين...

3 - Salifou André, kaoussan ou la révolte sénoussiste, CNRSH, Niamey, 1973, P24

4- Bourgeot André , « Les échanges transsahariens, la senusiya et les révoltes twareg 1916-1917 », In cahier d'études d'africaines (69-70), Paris 1979,159-185

5 - Marceau Gast, «Ajjer », in Encyclopédie berbèrer, edisud, Aix-en Provence,1986,P393

6- أنظر: مرموري حسن، التوارق بين السلطة التقليدية والادارة الفرنسية في بداية القرن العشرين، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010، ص ص147-208

7- Lettre du(16-04-1916),in Goré G, sur les traces de Charles de Foucauld, nouvelliste, Lyon, 1936

8 -A.bourgeot,(1979) ,et A. salifou,(1973)

9- Gorré,op-cit,1936, PP 176-177

10 - Ibid, P177

11- André Bourgeot, "Sahara espace géostratégique et en jeux politique", Auterpart, Paris,2000, P24

12 -in Gorré, 1936, PP115 -116

13- lettre du 16-12-1916, in Gorré,op-cit,